نظرية المعرفة

وعلاقتها بالفلسفة والتصوف

بقلم محرر المجلة

تمهيـــد

قلنا للقراء عند تقدمتنا لموضوع الأستاذ فريد بك وجدى إنهم سيجدون مقالا لنا عن الموضوع نفسه فى هذا الجزء ذاته . وبما أن المواضيع التى تفضل بها حضرات الكتاب لم تترك لنا مجالا فسيحاً للكتابة . فقد رأينا أن نكتفى بنشر مقدمة وجيزة للبحث ، واعدين بأتمامه فى المستقبل إن شاء الله

يهمنى فى بدء البحث عن هـذا الموضوع ، أن أبين المعانى المقصودة لتلك الكلمات ، التى اخترتها عنوانا للبحث . فالمعروف أن بعض الناس يخلطون بين تلك الكلمات بعضها ببعض ، أو يحسبون أن المعرفة العامة أو الفلسفة ، ندان للتصوف ، أو أن التصوف أقل من الفلسفة إن لم يكن أقل من الفلسفة والمعرفة معا

وكذلك اختلف الناس قديماً ، ومايزالون مختلفين حديثاً فى نفس المعرفة ، وعلاقتها بالكون أولا ، والكائن ثانيا . فمنهم من يقول بأنها لاتكون إلا نتيجة الأدراك بالحواس ، وهؤلاء هم الحاسيون ، أو التجريبيون الذين تقوم نظريتهم على بحث العلوم التجريبية بواسطة الأدراكات الحسية . ومنهم من يقرر بأنها لاتكون إلا نتيجة مايدرك بالحواس إدراكا يقينيا أو ظنيا ، مشركين فى هذا التأمل الفكرى ، وهو مايعبر عنه بملاحظة العقل لأعمال الحواس ، وهؤلاء هم الآخذون بمذهب الواقع الذى يقوم على إشراك الحس بالتأمل . ويقرر فريق ثالث بأنها لاتكون إلا نتيجة العقل المحض فى تفكيره ، وهؤلاء هم الذين تقوم أبحاثهم على العقل والاستدلال المنطقى . وهناك فريق رابع يقول بأنهـا لا تقوم إلا على

التصور العالى للحقائق الكونية ، و بمعنى آخر تذكر الصورة أو المثال الذى كان عليه الكائن فى عالم الحقيقة ، و بمعنى أوضح ، تقوم المعرفة لديه على التأملات المجردة ، والتفكيرات القلبية ، والروحانيات السامية ، والأشراقات النورانية . وهؤلاء هم ما يعبر عنهم بالمثاليين فى لغة الفلسفة ، أوالصوفية فى اعتبار الدينيين

فأنت ترى أن الأمر عسير جد العسر ، ودقيق كل الدقة . وفيه مايفسح المجال لكل قول ، وأى رأى . وعلى المنصف أن يتسامح فى ظن فريق وخطأ فريق : وللباحث أن يدرك سبب حيرة الناس واختلافهم ، بل سبب ارتطام العلماء بالفلاسفة ، إذا ماعلم أن الموضوع الذى نحن بسبيل البحث عنه ، ليس هينا ولا عسيرا

ونحن هنا لاندعى القدرة على البت فى رأى من تلك الآراء . أونزعم الأتيان بالقول الفصل فى المسألة ، إذ العصمة والكمال لله وحده

وإنما نود أن نبسط — بقدر طاقتنا — مسائل هذا البحث الخضم ، ونعرض على القراء خلاصة ماحصلناه من اطلاع فى كتبه

ونبدأ الآن الكلام على لفظ المعرفة ومعناها :

المعـــرفة لغة

يؤدى لفظ المعرفة فى اللغة عدة معان متقاربة منها : العلم والأدراك والأقرار وغيره مما يشابه معناه معناها ، وقد وردت فى القرآن الكريم كثيرا بمعنى الأقرار . والأقرار ضد الأنكار . قال تعالى « يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها » ومن ذلك قول الشاعر :

عرفنا جعفرا وبنى أبيه وأنكرنا زعانف آخرينا

ومن لفظ المعرفة ، اشتق اسم العارف . والعارف ـ فى عرف بعض الفلاسفة وفى لغة المتصوفة جميعا ـ هو الرجل المختص بمعرفة الله تعالى عن بصيرة وعلم . ومعرفة ملكوته وحسن معاملته ، عن إدراك وذوق

المعرفة اصطلاحا

تعريف المعرفة فى الاصطلاح تعريفا جامعا مانعا أمرفيه خلاف ، هوفى الحق خلاف ليس بالكبير أوالخطير . إذيكاد يتفق أغلب الفلاسفة والعلماء على أن المعرفة إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره ، أوإدراك الشيء بتمثله فى الذهن ، وتطبيقه على الواقع . ويقول الفيلسوف الألمانى (هربرت) « إن المعرفة مجموع التصورات الحقيقية القائمة بالنفس »

والذى يلوح لنامن هذا التعريف هوأن النفس محل لضروب مختلفة من التصورات : منها ماهو حقيقى . لهمصدر ذو وجود خارجى ، تطابق صورته الذهنية للواقع . ومنها ماهوغير حقيقى ، لاوجود لصورته فى الواقع ، فيصبح باطلا لاحقيقة له . أو وهما وخيالا صادرين عن تصورات زائفة . وإذن فالمعرفة الحقيقية — على هـذا الأعتبار — تقتضى أن تكون تصورا حقيقيا متلائم الوضع ، مرتبط الأجزاء ، مرتب المقدمات ، سليم المادة ، لاوهن ولاتخلخل فىأسسه ، به تنجلى الحقائق بمقتضى قواعد مخصوصة .

ومهما يكن من خلاف ، فأنا نرى التعريف القائل بأن المعرفة إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره ، أيسر إلى الفهم ، وأقرب إلى التحقيق . وللتدليل على صحة هذا القول نقول : إن الأنسان لايمكنه معرفةذات الشيء مباشرة — بالمعنى التام المقصود للمباشرة التامة — وإنمـا معرفة الشيء لاتكون إلا بأدراك أثره أولا .

قديبدو هذا القول عند بعض الناس غريبا ، ولكنه الحق على مانعرف . فمثلا نرى أن معرفة البشر لذات الله تعالى مستحيلة تمام الاستحالة . وإنما يعرف تعالى بتدبر آثاره فى موجوداته ، والتفكر فى مخلوقاته . يقول الله تعالى « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » ويقول أيضا « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وفى الحديث الشريف « تفكروا فى الخلق ، ولاتفكروا فى الخالق فتهلكوا » ويقول أبو نواس من قصيدة له :

تأمل فى نبات الأرض وانظر إلى آثار ماصنع المليك
عيون من لجين شاخصات بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

أما الآية الأولى فتدلنا على أن النظر لاينصب على الخالق جل وعلا ذاتا، وإنما ينصب على سمائه وأرضه . وتدلنا الآية الثانية على أن التبصر لايكون فى نفسه تعالى ، وإنما فى نفوس مخلوقاته . ويرشدنا الحديث إلى أن التفكر لايصح فى الخالق ، ولكنه يجب فى الخلق . وكذلك عنى الشاعر تأمل نبات الأرض ، وآثار المليك ، لا المليك ذاته .

وليس من شك مطلقا فى أن السموات والأرض ، أوأنفسنا ، أوخلق الله جميعا ماهى ، إلا صور ، أو مظاهر ، أوآثار للخالق جل وعلا ، وليست ذاته تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

على أنا سنأتى بعدة أمثلة لتوضيح المسألة عند الكلام على أنواع المعرفة وأقسامها . وإلا لو أخذنا فى سردها هنا ، لاختلط الأمر على بعض القراء ، وهذا مانخشاه ، ونحاول تذليله .

و إذن فلننتقل بالقارئ إلى الكلام عن تدرج نظرية المعرفة ، وعن منشأها ودواعى الخلاف فيها قديماً وحديثاً ، وموعدنا بهذا الجزء المقبل ؟

مطبعة الجمل بمصر

مستعدة لطبع جميع ما يطلب منها من الكتب والمجلات على اختلاف أنواعها مع العناية وحفظ المواعيد